مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد:25 عدد:55 السنة: 2021

المقامُ الصَّوتيّ وأثرُه في تحديد المَعنى القرآنيّ

The sound tone and its effect on determining the Quranic meaning

غربي بن صالح[1]
مخبر الخطاب الحجاجي- جامعة ابن خلدون تيارت
Slhgh92@gmail.com
أ.د كراش بن خولة
مخبر الخطاب الحجاجي- جامعة ابن خلدون تيارت
kerrachebenkhaoula@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/02/01 القبول 2020/10/22 النشر على الخط 2021/03/15
Received 01/02/2020 Accepted 22/10/2020.Published online 15/03/2021

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى بيان العلاقة بين الصّوت والمعنى ضمن الآيات القرآنيّة، من خلال دراسة الجوانب الصّوتيّة المختلفة فيها، ابتداءً من الحروف المشكّلة للمعنى وحركاتِها، وطبيعة الألفاظ وتكراراتِها، والأوزان الصّوتيّة وإيقاعاتها؛ بُغية معرفة دور الصّوت في استحضار المعنى القرآنيّ وكيفيّةِ تحديدِه له.

واعتمدنا في هذا البحث على الملاحظة والاستقراء والتّحليل لبعض الآيات القرآنية، وفق دراسة صوتيّة دلالية لهذه الآيات، لمعرفة مدى فاعليّة الصّوت في تحديد المعاني.

وتوصّلنا من خلال هذه الدّراسة إلى أنّ الأصوات تتطابق مع المعنى ضمن الآيات القرآنيّة وتؤدي دورًا توجيهيّا إلى طبيعة المعنى من خلال التّشكيلات الصّوتيّة المختلفة للمعنى القرآني؛ وتتم هذه المطابقة بين الصّوت والمعنى عن طريق مراتب القوّة والضّعف على مستوى الصّوت وقيّاسِها على مثيلتها في مستوى الدّلالة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ المعنى؛ المقام؛ الصّوت؛ التّوجيه؛ الأثر.

Abstract:

This study aims to clarify the relationship between sound and meaning within the Qur'anic verses, by studying the various phonological aspects in it, starting with the forming letters of the meaning and their forms, the nature of words and their repetitions, and the weights and rhythms of it in order to know the role of the sound to recalling the Qur'anic meaning and to define it.

We depend in this research on the observation, induction and analysis of some Qur'anic verses, according to a semantic and phonic study of these verses, to know to what extent does sound affect the meaning.

Through this study, we concluded that the sounds correspond to the meaning within the Qur'anic verses and perfom a directive role to the nature of the meaning through the various phonetic formations of the Qur'anic meaning; this correspondence between sound and meaning is made by the ranks of strength and weakness at the level of sound and measured it by its identical to the level of significance.

Key words: the Holy Qur'an, meaning, sound, direction, impact.

[1] – المؤلّف المرسل: غربي بن صالح البريد الإلكتروني: Slhgh92@gmail.com

1. مقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين؛ أمّا بعد:

يعتبر الكلام اللّغوي من المنظور الصّوتي جملةً من الأصوات النّائشة عن قصدٍ والمشكِّلةِ معنًى له فائدة؛ أو يمكن اعتباره أنّه تراكماتٌ صوتيةٌ اجتمعت وفق قواعدَ ثابتة توفي حقَّ الدَّلالة على معنًى؛ فيفسرَها العقل بناءً على ترجمةٍ لحظيةٍ لهذا التراكم، فيصل المعنى إلى النفس إما جزئيًّا أو كاملًا أو لا يصل، لأنه خاضع لحضور الوعي في هذه العملية إضافةً إلى المعرفة باللغة ورموزها، فالعقل لايترجم ما لا علم له به؛ ولكن حتى مع عدم فهم المعنى يتصور العقل من حيث المقاماتُ الصَّوتية التي يسمعها طبيعةَ المعنى وغرضَه العام الذي أُسّس من أجله؛ وذلك من خلال تشكُّلاته الصّوتيّة وطبيعةِ حروفه وحركاتها، فالمعنى العام تتضح معالمه –جزئيا– من خلال أصواته، وهذا لميزة اللّغة العربيّة في المجال الصّوتي، فهي تتسق لفظًا ومعنًى وصوتًا، وهذا هو مقصودنا بالمقام الصّوتي*، أي أنْ تكون التّشْكيلاتُ الصّوتيةُ التي ينبني منها المعنى موافقةً للغرض الذي يؤدّيه هذا المعنى.

وهذا التّوافق بين الأصوات والمعاني نجده ظاهرًا في القرآن الكريم بحيث تتشكّل المعاني القرآنية من أصوات تتوافق مع غرضها الذي تؤدّيه؛ ومنه نطرح الإشكال التالي: إلى أيّ مدًى يمكن أن يُسهم المقام الصوتي في تحديد المعنى القرآني؟

2. تمهيد حول ماهية المقام الصّوتي:

تعتبر المقامات الصّوتية في المعاني، تلك النبرةَ الصّوتية الكامنةَ في المسموع اللّغوي، من حيث طبيعةُ الأصواتِ والألفاظِ فيه، وكلّ مسموع يحمل في طياته مقاما صوتيا يمكن على أساسه تحديد المعنى الدّلالي*، فهما متلازمان؛ لأجل هذا عمد الشّعراء والخطباء إلى المقامات الصّوتية فاختاروا اللّفظ القويَّ وأصاغوه مع ما يماثله في المعنى، حتى يتم الانسجام ويكتمل الإدلال وتتوضح المعاني، وإذا كان المعنى دون ذلك في القوة ليَّنُوا ألفاظه وبرَوْها حتى تستقيم مع المعنى والغرض الذي ترمي إليه، وهذا معناه: «أنْ تكونَ الألفاظُ موافقةً للمعاني، فتُختارَ الألفاظُ الجزلةُ، والعباراتُ الشديدةُ للفخرِ والحماسةِ، وتُختارَ الكلماتُ الرقيقةُ، والعباراتُ اللينةُ، للغزلِ والمدحِ»[1].

وهذا التّكافؤُ بين الأصوات والمعاني نجد منه في القرآن ما لا نجد من مثله في غيره، فالأصوات في القرآن الكريم تأتي على قدر معانيه لا تُجاوزها، وحسب الموضوع والمعنى العام للآيات القرآنية تتوارد الصّيغة الصّوتية التي تتناسب والسياقِ الذي ترد فيه، فتجد هاته الصّيغة في موطن الشدّة تراعي الشّدّة، وفي اللّين لينًا، وفي التحدّي قوّة، وفي البشارة تأتي الأصوات أمنا وسلاما، في اتّساق جمالي بين المقام الصوتي والمعنى الدّلالي، وكأنما هذا الجَمْعُ الصَّوتي قد سُبك مع معناه سبكا واحدا، فأنشآ قطعة فريدةً أصيلةً جمعَت بين المعنى الخفيّ والمُعلن فلا فرق بين هذا وذاك.

---

* – وأسميته بالمقام ولم أسمّه بالنبر وموسيقى الصوت وغيرها.. لأن المقام يوحي بالرفعة والسّمو، مشاكلة لرفعة القرآن وسموّه على مادونه من الكلام. وقد جاء تسميتها في بعض الدراسات الصّوتية القرآنية بـ:"موسيقى القرآن" وهذا وإن كان صحيحا فمن مُنطلق المخالفة وجب أن لا نسمي مثل هذه التسميات، ومن باب أولى أن نخالف في القرآن الكريم التسمية، فمصطلح الموسيقى شائع في الغناء، ولو سمعت كلمة موسيقى فلن يتبادر إلى ذهنك غير موسيقى الغناء، وحتى نرفع القرآن عن دنس الغناء وجب أن لا نسمي مثل هذه التسميات.

* – وفي هذا يرى حازم، أنّ "التناسب يقع بين المفهومات وبين المسموعات الدالة عليها" ينظر: حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق:محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط: 3، 1986م، بيروت/ لبنان (أصلها رسالة دكتوراه 1964 بباريس)، ص16.

[1] – أحمد بن إبراهيم الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص316.

وأشار القدماء وكذا المحدثون إلى هذا التّكافؤ من وجهة لفظيّة، ورأوا أنّ «ألفاظ القرآن تأتي عنيفةً قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك، ورقيقةً عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما. هادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما»[1]، ونحن هنا سنبيّن هذه العلاقة من وجهة صوتية، لأنّ اللّفظ القويّ لابد أن تكون حروفه وأصواته قوية، واللّين الرّقيق لابد أن تكون حروفه ضعيفة، وتوضيح هذه العلاقة تفصيلًا سنبيّنه تنظيرًا وتطبيقًا فيما يأتي من المباحث الموالية.

3. المؤثرات في المقام الصوتي:

تتعدّد المؤثّرات في المقام الصّوتي القرآني وتختلف باختلاف الآيات والمعاني والسّيّاقات والسّور، وأهمّ هاته المؤثّرات ما يلي:

3-1. طبيعة الحروف وحركاتها:

تتفاوت مراتب قوّة الحروف باعتبار طبيعتها على حسب مخارجها وصفاتها، وقد قمنا في دراسة سابقة لنا* بتقسيم الحروف إلى ضعيفةٍ وقويّةٍ وأخرى بينيّة، واستقرّت نتيجة هذا التّقسيم على التّالي:

- الحروف القوية:

- أقوى الحروف: ط، ص، ق.
- وأقل منها مرتبة في القوة: ر*، ض، ظ.

- الحروف المتوسّطة:

- منها ما هي قريبة من القويّة: ع، غ، خ، ج، د، ك، ب.
- ودونها رتبة: ح، ش، ز، س، ء.

- الحروف الضعيفة:

ت، ذ، ث، ف، ل، م، ن، ي، و، هـ.

وحسب النّمط السّائد والغالب من الحروف في السّياق تتَحَدَّد قوّة المقام، وانظر كيف تزيد قوّةُ الحرفِ جرسَ اللّفظِ وقوّتَه* مثل "﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ من قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ (سورة فاطر: الآية: 37) فإنّه لفظ قويّ جدًّا"[2]، والسّبب في هذا قوّة الصّاد

---

[1] – عبد العظيم المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (أصلها رسالة دكتوراه) مكتبة وهبة القاهرة، ط: 1، 1413هـ/ 1992م، ج266/1.

* بعنوان: «المؤثّرات الصوتية في قوة المفردة القرآنية» ولازالت هذه الدّراسة لم تنشر.

* والراء من الحروف التي تفخّم والترقّق، فإذا كانت على التّفخيم –وهو الأصل– كانت قوية، وإن كانت مرقّقة كانت متوسّطةً قريبة للضعف.

* وانظر في هذا الشّأن: عثمان بن جني: الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 04، ج159/2، وج154/2؛ ومحمد القوصي: عبقرية اللغة العربية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، إيسيسكو، الرباط–المملكة المغربية، 1437هـ/2016م، ص 94–95–96 .. وغير هذا من الكتب.

[2] – ينظر: المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج263/1، وينظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر – لبنان – 1416هـ– 1996م، ط: 1 و2، ج237/2

والطّاء، ومثله لفظ "﴿**الطَّامَّةُ**﴾ فإنّه لفظٌ قويّ ذو دويّ وطنين"[1]، والسّبب قوة الطّاء، وهكذا الشّأن في المعاني، فإذا كانت الحروف القويّة الشّديدة هي الغالبة في المعنى كان المقام الصّوتي قويا، وإن قلّت قوّتها قلّت قوّته.

وإضافة إلى طبيعة الحروف تُؤثّر العوارض الطّارئة على الحرف في قوّته، والتي يتقدّمها التّشديد -التّضعيف- فإن "اللّفظ المضعّف أقوى صوتيا من اللّفظ غير المضعّف فهو بمثابة تداخل صوتين في حرف واحد"[2]، وهو أقوى منه دلاليّا "فاللّفظ الذي فيه تشديد قويّ صوتًا وينبغي أن يقابل به قوّة الفعل كذلك"[3]، ومنه ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (سورة التوبة: الآية: 38) «ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود»[4]، فانظر كيف قابلت قوّةُ الصّوت قوّة الفعل.

ومن العوارض حركات الحرف من ضمٍّ ونصبٍ وكسر وتسكين، فإنّ لحركات الحروف أثرًا جليًّا في قوّة الحرف، ورأى بعضهم أنّ "الضّم أقوى الحركات يليه في ذلك الفتح ثم الكسر والتسكين"[5]، وقد يكون الفتح أقوى من الضّم والحرف الممدود على الفتح أقوى من غيره من الحركات*.

3-2. طبيعة الألفاظ:

تعتبر طبيعة الألفاظ في المعنى أهم المؤثّرات في المقام الصّوتي، ويتم ذلك من خلال اختيار ألفاظٍ قويةٍ أو لينةٍ بحكم طبيعتها، ذلك أنّ «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلةٍ ورقيقةٍ ولكلّ منهما موضعٌ يحسنُ استعماله فيه فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التّهديد والتّخويف وأشباه ذلك. وأما الرّقيق منها فإنّه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيّام البعاد وفي استجلاب المودّاتِ وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك»[6]؛ لهذا يحْسنُ أن تُقسّم الألفاظ على أقدار معانيها، فإذا تلاءمت الألفاظ القوية أو اللّيّنة مع ألفاظٍ أخرى تماثلها في اللّين أو القوة، فإنّ من شأن هذا أن يُحدث مطابقة بين الصوت ومعناه ضمن سياق الكلام.

وهذه المطابقات كانت واضحة في القرآن الكريم، يقول "ابن الأثير": «وسأضرب لك مثالًا للجزل من الألفاظ والرقيق فأقول: انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئًا من ذلك وحشي الألفاظ، ولا متوعرًا. ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة، والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين والتائبين من

---

[1] - ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق - القاهرة، 1425هـ/ 2004م، ط: 17، ص93.

[2] - ينظر: عمرو بن عثمان سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 03، 1408هـ / 1988م، ج529/3.

[3] - ينظر: ابن جني: الخصائص، ج157/2.

[4] - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص91-92.

[5] - محمد ابن قيم الجوزية: تفسير القرآن الكريم (تفسير ابن القيم)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط: 01، 1410 هـ، ص209-210.

* مثل: "طا" فإنّه أقوى من "طَ" دون مدّ، ونقلت هذا عن شيخي في أحكام التّجويد ولم أجده في حدود ما بحثت من كتب.

[6] - ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الفجالة بالقاهرة، ج185/1، وينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج236/2، وينظر: جريدي سليم سالم المنصوري الشبيتي: التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين وقيمته في الفكر الحديث، رسالة ماجستر، إشراف: الدكتور مصطفى عبد الواحد، جامعة أم القرى مكة، 1404هـ/ 1989م، ص219.

العباد، وما جرى هذا المجرى، فإنَّك لا ترى شيئًا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفًا»[1]، فإنّ ألفاظ القوارع والفواجع في القرآن تأتي قويّة شديدة من غير توحّش، وألفاظ الرّحمة والملاطفات تأتي ليّنةً من غير تسفسف.

ويصف "الرّافعي" مطابقة الألفاظ القرآنيّة للمعنى الحامل لها بقوله: «ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تُذكّر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعَد من حمى القلوب. ومعان بينا هي عذوبةٌ ترويك من ماء البيان، ورقّةٌ تسترْوِح منها نسيم الجنان»[2]، فألفاظ القرآن تأتي مُطابِقةً لمعاني الآيات التي ترد فيها، من حيث تشكيلاتُها الصّوتية المضمّنَةُ في الألفاظ؛ وتأتي على قدر المواءمة –من ناحية القوّة والضّعف– لمعانيها.

3-3. التكرار:

وهو من أجمل الأفانين إن كان وقوعه في الكلام دون تكلّف أو إخلال بحق المعنى أو إشعار للسّامع بالملل، فهو يوحي بقوة المعاني وأصواتها، والتّكرار «يكون على مستوى الصّوت أو اللّفظ أو الجملة»[3]، ونكتفي هنا بمستويي الصّوت واللّفظ*، لبعد تكرار الجملة عن التأثير في المقام الصّوتي.

أ) التكرار الحرفي في السيّاق:

يؤدّي التكرار الحرفي في المفرد إلى تقويّته صوتًا ودلالة، ليدلّ تكرار الصّوت على تكرار المعنى، مثل: ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (سورة الشعراء: الآية: 94)، فتكرير الحروف دليلٌ على التّكرير في المعنى، "كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها"[4]، فإن تكرار الحروف في اللّفظ يؤدّي دلالةً تكرارية فيه ويُسهم في تقويته وفي تناسبه مع معناه.

وأما في السّياق فهو أن يغلب صوت وحرف واحد ليدل على المعنى العام للسياق، فالنبرة التكرارية للصوت لها مدلولها من القوة، ومثاله قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13)﴾ (سورة النازعات: الآية من: 06 إلى 13)، فتأمل الشحنة الصّوتية العالية التي أضفاها حرف الرّاء في تكراريته ضمن سيّاق الآيات، حيث أدّى دورا أساسًا في توجيه المقام الصّوتي وجعلِه مقاما عاليا يوحي بشدّة الموقف وهوله.

ولتكرار الحرف الواحد دلالته التّصويريّة، يقول "سيّد قطب" عن تكراريّة حرف السّين في سورة النّاس «اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث "وسوسة" كاملة تناسب جو السورة. جو وسوسة ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)﴾ (سورة النّاس: الآية: من 4 إلى 6)»[1]، وبهذا يكون للتّكرار دلالات تصويريّة وتوكيديّة، كما يفيد تقوية المعنى صوتًا ودلالةً.

---

[1] – ابن الأثير: المثل السائر، ج186/1.

[2] – مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي– بيروت، ط: 8، 1425هـ/ 2005م، ص23.

[3] – فضيلة مسعودي: التكرارات الصوتية في القراءات القرآنية –قراءة نافع نموذجا–، دار أحمد، عمان، الأردن، ط:1، 2008 ،ص20.

* ونشير إلى أنّ التكرار الصوتي واللفظي يعتبران من أهم مميّزات المقام الصوتي العالي، بما لهما من دور في تقوية الأصوت والألفاظ والمعاني، وليس شرطا أن يجعل هذا التكرار من المقام المسموع عاليا –وإن كان الغالب أن يتواجد في المقام العالي–، فقد يكون من سمات التوسط أو حتى المنخفض، فالحكم يكون عن طريق السّماع لعموم المعنى قبل الحكم على كونه من المقام الصوتي العالي أو هو دون ذلك.

[4] – محمود بن عبد الرحيم صافي: الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد– دمشق/ مؤسسة الإيمان– بيروت، ط: 4، 1418هـ، ج93/19.

ب) التّكرار اللفظي:

ويكون هذا التكرار إمّا عن طريق المفعول المطلق، أو الجناس، أو إظهار مقام إضمار، أو مشاكلة، أو تذييل وغير ذلك، وهو غالبًا ما يكون على سبيل التوكيد والمبالغة، وقد يكون التكرار من عيوب البلاغة، إن خلا من فائدة، أو ساء إيراده*؛ أما إنْ حسُن إيراده فهو يعتبر من أرقى الفنون البديعية وأطرِها وقعا على السّمع، وهو معروف في الفنون الشّعرية والبلاغية القديمة، ومن روائع ما جاء في مثل هذا النّوع من التكرار:

قول الأعشى:

عُلِّقتها عرضاً، وعُلِّقتْ رجلاً غَيرِي، وَعُلّقَ أُخرَى غيرَها الرّجلُ[2]

وقد جاء هذا اللّون التكراري البديع في القرآن الكريم في أعلى صورة من البلاغة والحسن، ومنه قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهَّدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة يونس: الآية: 35)، فانظر إلى تكرار لفظي "الحقّ" و"الهداية" في الآية، فهما في غاية الحبك والإبداع، وقد أكسبا سياق الآية نمطًا من الجزالة والجديّة لم تكن لتستشعره دون هذا التّكرار البديع.

3-4. الإيقاع (الوزن . الفاصلة):

يعتبر الإيقاع سمةً بارزةً في سياق المقاطع والسّور، وهو يختلف من مقطع إلى مقطع ومن سورة إلى سورة، من ناحية الطّولُ والقصر، والوزنُ والفاصلة الصّوتية؛ وهذه الإيقاعات والفواصل والأوزان المختلفة كلٌّ منها يتّسق مع الموضوعات التي يرد لها؛ حيث «إن الإيقاع الموسيقي يُطلَق متناسقا مع الجو العام الذي أطلق فيه، وهذا الإيقاع يتعدد في السورة الواحدة، ويتنوع تبعا لتنوّع أجواء السورة وتعدّدها، واختلاف أساليب العرض الفني فيها»[3]، وأهمّ مُميِّزاتِ الإيقاع في السّور القرآنيّة: الفواصل الصوتيّة، وطول وقصر الآيات.

وتحدّث المطعني عن طول وقِصر الفواصل –الآيات– وأنّ لكلّ موضوعًا خاصّا، "فالآيات القصيرة تسعى لتأديّة الفكرة الخاطفة الموجزة، لا الطويلة، بينما الآيات الطّويلة تعالج مشاكل ذات أصول وفروع فهي تفصيلية"[4]، والفواصل "تقصر غالبا في السور القصار، وتتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال"[5].

ولكلّ من الطّول والقصر والتّوسّط مواضيع تناسبه، ويؤيد هذه الفكرة –في نظر المطعني– «أن الغالب في الآيات القصار أن سورها مكية النزول. وللقرآن في مكة مجال غير مجاله في المدينة. فالقرآن المكي كان يهدف إلى محاربة الضلال في العقيدة والسلوك فجاء بموضوعات تخدم هذا الغرض من التبشير والإنذار. والترغيب والترهيب. لذلك كانت آياته قصيرة العبارة حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع. وفي المدينة كان مجاله التشريع وإرساء قواعد المجتمع الإنسانى من حيث العبادات والمعاملات والأخلاق الإنسانية فاتجهت سوره وآياته إلى الطول

---

[1] – سيد قطب: التصوير الفني، ص94.

* – ينظر: : أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة: ص35.

[2] – ميمون بن القيس: ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق:محمد حسين، مكتبة الآداب/ الجماميزت، ص55.

[3] – صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفاروق– عمان، ط: 1، 1437هـ/ 2016م، ص168-196.

[4] – ينظر: المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج242/1.

[5] – ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص107.

والاستقصاء..»[1]، وذهب أحمد بدوي أنّ "التّهديد والوعيد يناسبه الأسلوب المندفع، والجمل القصيرة التي تُناسب الانفعال السّريع العنيف"[2]، وبهذا فإنّ قصر الآيات يتناسب مع مواضيع التّهديد والوعيد، وهو يسهم في تقويّة المقام الصّوتي، بينما الآيات الطويلة تتناسب مواضيعها مع التشريعات والأحكام، فهي تتناسب مع المقام الصوتي المتوسّط أو اللّين.

وتحدّث سيد قطب عن تغيّر نسق الفواصل لملاءمة نسق المعنى، وقال عن سورة النّازعات: "أنّ فيها إيقاعين ينسجمان مع جوين فيهما تمام الانسجام. أوّلهما يظهر في هذه المقطوعة، السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبني، تنسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف، على النحو التالي:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5)﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)﴾ (سورة النازعات: الآيات: 1-14)"[3].

والإيقاع الثاني «يظهر في هذه المقطوعة، الوانية الحركة، الرخية الموجة، لمتوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديث الكرة الخاسرة، والزجرة الواحدة، وحديث الساهرة، على النحو التالي : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) ... وما بعدها﴾ (الآيات: 15 إلى 17)»[4]، فالأسلوب القصصي يناسبه الإيقاع البطيء رخيّة الموجة متوسّط الطّول[5].

فانظر إلى تلاؤم كلّ إيقاع مع الموضوع المناسب له، فكان الإيقاع القصير مناسبًا لوصف مظاهر التّهديد والأهوال، فهو إيقاع قوي، ثم انتقل في نفس السّورة إلى إيقاع ثانٍ متوسّط الطّول ليتلاءم مع الجو القصصي في السّورة ، فهو أقلّ قوّة من الإيقاع القصير، وبالتّالي فهو أنسب للنّمط القصصي الذي يناسبه التّوسّط غالبا.

ولننظر إلى إيقاع غير هذين الإيقاعين، فانظر إلى إيقاع الدّعاء في الآية: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)﴾ (سورة آل عمران: الآية: 191 إلى 194)، فالدّعاء يناسبه الفواصل الطّويلة والإيقاع الرّخي المتموّج والتطريب والاسترسال[6]، وقد أدّى هذا الإيقاع إلى تناسق المعاني في هذه الآيات المتضمَّنة معنى الدّعاء.

3-5. المُؤثّر العقلي:

وهو أن يتحدد المقام حسب طبيعة المعنى عقلا، ومن أمثال هذا المعاني القوية المبنيّة على ألفاظٍ قويّةٍ دلالةً متوسّطةِ القّوة صوتًا، فإن لم تدل عليه أصواته من ناحية قوتها دلّت عليه ألفاظه من ناحية دلالتها، فالغلبة للأقوى والدّلالة أقوى من الصّوت، و«اللغات تتفاضل من

---

[1] – المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج242/1.

[2] – ينظر: أحمد عبد الله البدوي: من بلاغة القرآن، نهضه مصر– القاهرة، 2005، ص188-189.

[3] – ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص111، وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمان، الطبعة: الأولى، 1421ه/2000م، ص137.

[4] – سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص111.

[5] – ينظر: الخالدي: إعجاز القرآن البياني، ص137.

[6] – ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص112

حيث هي بيان، أكثر مين تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام»[1]، ومن درجة تأثيره أن يُستحضر في الذهن على صورة مقامه وليس على هيئة أصواته*.

ويمكن أن نمثّل له بقوله سبحانه في التّحدي والإقرار بالإعجاز: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء: الآية: 88)؛ فالمقام على التوسّط من حيث الأصوات أما من حيث المعنى والطّبيعة الدلالية فإنه مقام عال سمعا ونطقا، فلن يتأتى لك المعنى على التّوسّط في سمعك باعتبار أنّ المعنى مُضمّنٌ معنى التحدي قوي في ذاته، وألفاظه قويّة من حيث دلالتُها*.

ويستشهد ابن الأثير ببعض الأبيات للسموأل بن عاديا وهي: [2]

تُعيرنا أنّا قليل عديدنا *** فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارنا *** عزيز وجار الأكثرين ذليل

يقرب حب الموت آجالنا لنا *** وتكرهه آجالهم فتطول

ويعلّق عليها بقوله: «فإذا نظرنا إلى ما تضمنته من الجزالة خلناها زبرا من الحديد وهي مع ذلك سهلة مستعذبة غير فظّة ولا غليظة»[3]، فألفاظ هذه الأبيات –وكذا الآية الكريمة قبلها– قوية دلالةً متوسّطة صوتًا؛ والمؤثر العقلي يعمل على إدراج المعنى في مقامه إن بلغت به دلالته مَدْرَجَه، فهو من هذا الناحية تابع للمعنى وفهم السّامع للسّياقات.

4. أنواع المقامات (مع نماذج):

تُقسّم المقامات الصّوتيّة في المعاني باعتبار القوّة والضّعف فيها إلى ثلاثة أقسام: المقام المرتفع (العالي)، والمقام المتوسط، والمقام السّلس (المنخفض)؛ وكلّ مقام له أغراض أخرى تخرج عن إطار القوّة والضّعف في الأصوات، ونحن في غنى عن دراستها في هذا الموضوع.

4–1. المقام المرتفع (العالي):

وهو المقام الذي تكون نبرته الصّوتية صاعدةً تعتمد على القوّة اللّفظيّة والصوتيّة والحروف المُشدّدة، وعلى التكرارات صوتًا ولفظًا، وعلى الإيقاع الوزني المتقارب فـ«يتدفق الأسلوب ويندفع، في جملٍ قصيرة، مثيرا بذلك الانفعال السّريع العنيف»[4]، وتجده في وصف الأهوال وأحداث القيامة، وفي وصف أهل النار وأحوالهم، وفي التخويف والتهديد والوعيد والتحدّي، وفي السّياقات الجدّية والمعاني التي تتسم بالقوة

---

[1] – محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ/ 2005م، ص141.

* شرط أن لايكون تباعد بين المقامين، كأن تجتمع الألفاظ السّلسة وأصواتها اللّينة مع المعنى شديد القوة أو العكس، فهذا يوجب خللا في بيان المقصود على حقيقته، إلا ما كان منه تهكما أو لأغراض يحددها السّياق العام؛ فيجب أن يكون التفاوت بسيطا بين مقام التوسط والذي دونه أو بينه وبين الذي فوقه، لأنّ التّوسط يصلح لجميع المقامات، فهذا التّوجيه العقلي استصاغه السّامع حسب دلالة المعنى.

* وقد يكون التّوسّط هو الأنسب، وقد ذهب الخالدي على أنّ الآية على سبيل الإخبار بعجزهم وليست على سبيل التّحدّي "إعجاز القرآن البياني: ص52"، والإخبار ممّا يناسبه التّوسّط في الغالب.

[2] – الأبيات في: المثل السائر: ابن الأثير، ج189/1، ولم نذكر الأبيات كاملةً لضيق المقام.

[3] – ابن الأثير: المصدر نفسه، ج190/1.

[4] أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص188–189.

كالحروب والفخر وفي صدر الخطب للوعظ والزجر، والصّبغة الصوتية العالية التي تكسو هذا المعنى الجدّي، هي لزيادة والوضوح والتقرير، بحيثُ تُشعر السّامع بالنبرة الزاجرة والوعيد الصّاعد، فيعيشَ أهوالَه، وتستكينَ نفسُه، ولن يشعر بمثل هذا في مقامٍ دونه.

- **نماذج من المقام العالي:**

ومنه قوله سبحانه في سياق التهديد والوعيد: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) .. وما بعدها من الآيات﴾ (سورة القمر: الآية: 1-4)

ومثّل له ابن الأثير بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(68)﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(72)﴾ (سورة الزمر: الآية: من68 إلى72)؛ وعلق عليها بقوله: «فتأمَّل هذه الآيات المضمنة ذكرَ الحشر على تفاصيل أحواله، وذكرَ النار والجنة، وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة؟»[1].

ومثّل له الدكتور عبد العظيم المطعني بقوله سبحانه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11)﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17)﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (28)﴾ (سورة المدثر: الآيات: 11 إلى 28)﴾ *، وعلّق على الآيات بقوله: «فانظر إلى عنف الألفاظ إلى أي مدى يصل. وإن العنف ليبلغ مداه في مواطن الحكم من النص ... وذلك في موضعين: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ - ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وقد بدأ هذا النص بكلمة أعنف ما تكون في هذا الموضع: هي ﴿ذَرْنِي﴾ ويا ويل من كان هذا تهديدا له. إنهن كلمات قاتلات أوقع في النفس من أمضى سلاح»[2].

ولك أن تلحظ في هذه الآيات* وأسلوبَها وإيقاعَها، وقوّةَ ألفاظها، وعلوّ نبرها، وتواليَ التضعيفات فيها، والتّكراريةَ الزجرية في أصواتها، وهيئةَ مدودها وحركات حروفها، فكلّها تتوافق في القوّة مع المدلول العام للآيات التي صيغت في سيّاقات زجرية تهديديّة تَظهر فيها قوّةُ الخطاب وضُعف المُخاطَب.

ومن المقام العالي في الشعر قول عنترة:[3]

سلي يا ابنةَ العبسيِّ رمحي وصارمي*** وما فَعلاَ في يوم حَرْبِ الأَعاجم

سقيتُهما والخيلُ تعثُرُ بالقنا *** دماءَ العدَا ممزوجةً بالعلاقم

وفرَّقتُ جيشاً كانَ في جنباتهِ *** دمادمُ رعدٍ تحتَ برقِ الصَّوارم

ومن خطب العرب في هذا المقام: خطبةُ الحجّاج لأهل الكوفة «والله إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ... والله لأُنَكّلنّ بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلا في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل..»[1].

---

[1] ابن الأثير: المثل السائر: ج1/186.

* المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج1/266-267، وكذلك رأى أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص188-189.

[2] المطعني: المرجع نفسه، ج1/267.

* ولمزيد من الأمثال ينظر الآيات التي تتحدث عن أهوال القيامة مثل أوائل سورة الحج (الآية: 1-2) وأواخر سورة النازعات: (الآية: 34- 39)؛ والآيات التي جاءت في سيّاق التّحدي كأواخر سورة الكهف (الآية 109).. وغير ذلك.

[3] - الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنترة (عنترة بن شداد)، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، 1412هـ/ 1992م، ص189-190.

فانظر إلى العلاقة بين الأصوات والمعاني في الأبيات والخطبة، وكيفت صيغت هذه المعاني الرّزينةُ القويّةُ في قوالبَ صوتيّةٍ رزينةٍ قويّةٍ مثلِها، فلا يحتاج إدراك هذه العلاقة إلى مجهود، لوضوح ذلك.

4-2. المقام السّلس (المنخفض):

وتكون نبرته سلسةً هادئةً، وتجد أنَّ حروفَه وألفاظَه تنساب بخفّة على اللّسان، وتجر عليه مجرى الدّهان، وتتميّز الألفاظ والأصوات في هذا المقام بالسّلاسة وتجنّب التكرارات اللّفظية والصّوتية، والاعتماد على الألفاظ اللّينة وحروف الاستفال والهمس، وندرة الجهر، وعلى الأحرف المرقّقة دون المفخّمة إلّا نادرا؛ ومواضع هذا المقام كثيرةٌ، يقول أحمد بدوي: «ويتسم الأسلوب القرآني بالهدوء عند ما يتطلب الأمر هدوءا وتأملًا وفضل تدبر، كما في الآيات التي تدعو إلى إعمال الفكر، وفي القصص والأخبار والأحكام»[2]، وكذلك يكثر هذا المقام في سيّاق الفضل والهداية والبشارة والرّحمة، وفي وصف أهل الجنّة وفي المدح والوعظ الخفيف الخالي من الزجر، وفي مقدمات الخُطب فلا يمكن أن تبتدأ بنبرة زجر -إن لم يكن داعٍ لغير ذلك- بل تعتمد على السلاسة، ثم تتوالى تدريجا في رفع المقام، وغير ذلك من المواضع التي لا يتناسب معها الزّجر؛ لأجل ذلك يقول قدامة بن جعفر عن الغزل: «ولما كان المذهب في الغزل إنما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة، كان ما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة، غير مستكرهة، فإذا كانت جاسيةً مستوخمة كان ذلك عيباً»[3]، وهذه الرّقة واللطافة هي ما أطلقنا عليه "المقام المنخفض".

- **نماذج من المقام السلس (المنخفض):**

ومنه قوله سبحانه في فاتحة كتابه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾ (سورة الفاتحة)، والمقام فيها سلس يتميز بالخفة «وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ»[4]، إذْ لامُصوّغ لرفع النّبرة الصّوتية فلا تهديد ولا وعيد، فالفاتحة بمثابة مقدّمة لكتاب الله، ولا يتناسب المقام العالي معها فهي بمثابة حمدٍ على الله وثّناءٍ عليه، وعن كون العبادة والاستعانة لا تكون إلا له وبه.. وغير ذلك من الأوصاف في السّورة والتي لا يتناسب معها إلاّ المقام السّلس فهو أوضح بيانا وأوفى مقصودًا من أن لو صيغ غيرُه من المقامات مكانَه.

ومثّل له المطعني بقوله سبحانه في مقام الترغيب: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النّور: الآية: 22).

فى الآية الكريمة ترغيب في الإنفاق والبذل لمستحقيه. وقد جاءت الألفاظ سلسة عذبة. فيها إثارة لعمل الخير، وترغيب بعد ترغيب»[5]، وهو تمثيل حسن*.

---

[1] – شهاب الدين الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب – بيروت، ط: 1، 1419هـ، ص62.

[2] – أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص187-188.

[3] – قدامة بن جعفر البغدادي: نقد الشعر، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، ج: 1، 1302هـ، ص75؛ وقال بعدها: «إلا أنه لما يكن عيباً على الإطلاق، وأمكن أن يكون حسناً».

[4] – ابن الأثير: المثل السائر، ج178/1.

[5] – المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج187/1-188.

ومثل له ابن الأثير بقول عروة بن أذينة:

إنّ التي زعمت فـؤادك ملـها *** خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغـها *** بلباقة فأدقها وأجلها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي *** ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة *** شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقال عن هذه الأبيات ومثيلاتها: أنه قد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكاد يذوب لرقته[1].

ومن الأشعار الرقيقة قول أبي العتاهية في قصيدة يمدح بها المهدي ويشبب بجاريته عتب وكان أبو العتاهية يهواها:[2]

ألا ما لسيـدتي مـالها *** تدل فأحمل إدلالها

لقد أتعب الله قلبي بها *** وأتعب في اللوم عذالها

كأن بعيني في حيثما *** سلكت من الأرض تمثالها

وعلّق الهمذاني عليها بقوله: «واعلم أن هذه الأبيات من رقيق الشعر غزلًا ومديحًا، وقد أذعن لها شعراء ذلك العصر... ومع هذا تراها من السلامة واللطافة في أقصى الغايات»[3].

ووما جعل هذه الأبيات والتي قبلها خفيفة مستعذبة، تكرار حرف الهاء في القافية وبعض الكلمات الأخرى، لكونه يعتبر أضعف حروف اللّغة.

ومثله قول الشافعي:[4]

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً *** فدعه ولا تكثر عليه التأسفا

فانظر إلى هذا البيت وما بعده من الأبيات، فإنها في نفس الخفّة والسّلاسة، وسلاسة هذه الأبيات وخفّتها راجعة إلى قافيتها التي تنتهي بالفاء الذي يعتبر من أضعف حروف اللّغة، وكذلك لغلبة الحروف الضّعيفة فيها.

4-3. المقام المتوسط:

---

* وقد مثّل له أحمد بدوي بقوله سبحانه: من سورة الرّعد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)..﴾ من الآية الثانية إلى الآية السادسة؛ ومثل له كذلك بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74) ..﴾ وما بعدها "من بلاغة القرآن: ص188"؛ إلا أنّ الظاهر من هذه الآيات من ناحية صوتها أنّها على التوسّط -على أقل تقدير-، وكذلك من ناحية الدّلالة، لأنّ آياتَ "الرّعد" في وصف آيات الله وعِظمها، وقدرته سبحانه، وآياتَ "الأنعام" في سياق الشّرك وبراءة إبراهيم عليه السّلام منه، وهذا ممّا يناسبه التّوسّط على الأغلب.

[1] - ينظر: ابن الأثير: المثل السائر ج190/1.

[2] - الأبيات في: الكشكول: بهاء الدين الهمذاني، تحقيق:محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:1، 1418هـ -1998م، ج110/2.

[3] - بهاء الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ج110/2.

[4] - محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشّافعي، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط:03، 1426هـ/2005م، ص81.

وهو الذي تكون نبرته الإيقاعية بين هذا وذاك، فلا تعتمد اللّين المطلق ولا العلوّ المفرط، وتكون فيه التّكرارات والتّضعيفات بنسب متفاوتة؛ وسطًا، لا تنعدم ولا تطغى، وتكون ألفاظهُ متوسّطة القوة وأصواته بين اللّين والشّدة، وهو الإيقاع الغالب على النصوص، إذ هو يتناسب مع جميع أنواع الخطاب –تقريبا–، وذكر المطعني أنّ العتاب يناسبه أسلوب التوسط، فـ«القرآن ينتهج في العتاب نهجاً فريداً. جامعاً فيه بين العذوبة والرّقة والقوّة»[1]، وكذلك التّشريع «فإن اللفظ القرآني يأتي وسطاً بين النوعين إلا أن يقتضي المقام عنفاً أو لطافة»[2]، كما يكثر في الخطابات الوسطية، كالقصص القرآني وللتّذكير وبيان آيات الله ودلائله وملكوته وحسن تصرّفه سبحانه وغيرها.

- **نماذج من التوسّط:**

ومنه قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)﴾ (سورة يس: الآية: 77-83).

فليس المقام للزجر وليس للبشارة بل هو بينهما للتذكير وإقامة الحجة ومخاطبة العقل واستدراجه بما يتناسب معه من الآيات والحجج العقلية المنطقية، «وذلك أنه لما تبيّن الاستدلال بخلق أشياء على إمكان خَلق أمثالها ارتُقِي في هذه الآية إلى الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق مَا دونها. وجيء في هذا الدليل بطريقة التقرير الذي دل عليه الاستفهام التقريري لأن هذا الدليل لوضوحه لا يسع المقِرّ إلا الإقرار به فإن البديهة قاضية بأن مَن خلق السماوات والأرض هو على خلق نَاس بعد الموت أقدر»[3]، فالآيات صيغت للإخبار والحجة، ولأجل هذا كان المقام المتوسط في هذا الموضع حسن الإيراد لطيف المكان يتناسب مع وسطية الخطاب.

وأورد المطعني مثالاً للنص التشريعي في القرآن الكريم بآيات الصّيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) .. إلى الآية 185﴾ (سورة البقرة: الآيات: من 183-185)[4].

ومثّل لعتاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله سبحانه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة التّوبة: الآية: 43)[5].

فانظر إلى طبيعة الألفاظ والحروف المشكّلة للمعاني، فإنّك ستجدها على درجة متوسّطة بين اللّين والقوّة، كما تجد المعاني ذاتَها على تلك الوسطيّة في الدّلالة.

ومثاله من الشّعر: قول قيس بن الملوح:[6]

---

[1] – المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج273/1.

[2] – المطعني: المرجع نفسه: ج277/1.

[3] – محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع (الطبعة التونسية) – تونس – 1997 م، ج78/23.

[4] – المطعني: خصائص التعبير القرآني، ج278/1.

[5] – المطعني: المرجع نفسه، ج275/1.

[6] – قيس بن الملوح: ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى، رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق: يسري عبد الغني، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1420هـ/ 1999م، ص122.

وَقَد يَجمَعُ اللَهُ الشَتيتَينِ بَعدَما *** يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَن لا تَلاقِيا

ومثاله من خطب العرب: خُطبة قس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ؛ فقال:

«أيها الناس: اسمعوا وعوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟»[1].

فإنّ طبيعة الحروف والألفاظ في كلّ من الأبيات والخطبة، على درجة من التّوسّط وهي بذلك تتلاؤم مع وسطية المضمون في كلّ منهما.

4-4. الجمع بين مقامين:

وفيه يكون الجمع بين فريقين أو بين أسلوبين، كالجمع بين نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين، وأسلوب الخبر وأسلوب الوعيد، فتكون الألفاظ والأصوات على قدر كلّ أسلوبٍ وفرقة، إلّا أن يقتضي المقام غير ذلك.

ومثله قوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنعام: الآية:125)؛ فالفريق الأول فريق المؤمنين، فكان المقام منخفضا سلسا ألفاظه لينة تفيد البشارة والانشراح في الدنيا والآخرة؛ أما الفريق الثاني فهم الكافرون الضّالون ومعه تصاعد المقام للتهديد والوعيد، وتوالت الحروف المضعّفة وحروف الاستعلاء لبيان عاقبتهم وسوء منقلبهم في الدنيا والآخرة.

ومثّل لذلك العلوي بأبيات زهير:

أثافي سفعا في معرّس مرجل *** ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم

فلمّا عرفت الدّار قلت لربعها *** ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم

وعلقّ عليها بقوله: «فالبيت الأول ألفاظه غريبة لما كان المعنى المقصود جزلا لكونه غير معروف مجهولا حاله، فلمّا عرَّفه أتى في البيت الثاني بما يلائم المعنى من رقة اللفظ وحسنه ورشاقته لما فيها من البيان والظهور وكثرة الاستعمال»[2].

ومن الأبيات «التي جمعت بين معان قوية وأخرى رقيقة في قصيدة غزل قول وضاح اليمن:

قالت ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر

قلت فإني طالب غرة ... منه وسيفي صارم باتر»[3].

فهذه معانٍ جمعت بين الرّقة والقوّة في ألفاظها ومدلولاتها.

5. خاتمة (نتائج وتوصيّات):

[1] – أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت-لبنان، (د. ت/ ط)، مج38/1.

[2] – يحيى بن حمزة العلويّ: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1423هـ، ج80/3، والأبيات من نفس الصفحة.

[3] – سليم الشبيتي: التناسب بين عناصر القصيدة، ص240، والأبيات في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1، 1415هـ، ج435/6.

في خاتمة هذه الدراسة نرى المقام الصّوتي في القرآن تربطه علاقة واضحة بمعاني الآيات، فهو عامل توجيهي تلقائيٌّ لطبيعة المعنى القرآني لدى سامعه، وتكون هذه العلاقة التّوجيهيّة من خلال مراتب القوّة والضّعف في الأصوات المشكِّلة للمعنى، ومن خلال هذه العلاقة نستخلص جملةً من النّتائج أهمّها:

– يتمثّل المقام الصّوتي في الإيطار الشّكلي المصاحب لتأديّة المعنى بما فيه من حروف وحركات، وألفاظ وإيقاعات .. تتظافر مع دلالة المعنى في تأديّة المقصود.

– أنّ الأصوات رديفة الدّلالات، تأتي على أقدارها إن ضعيفةً فضعيفةٌ، وإن قويّةً فقويّة، وهذا التطابق يعتبر وجها بديعيا يزيد حسن المعاني.

– يتأثر المقام الصّوتي بما يتشكّل منه من حروف وأصوات، سواءٌ في الألفاظ أو المعاني، فإذا غلبت الحروف القويّة في المعنى أو اللّفظ ازدادت قوّته صوتا.

– يتأثر المقام بطبيعة الألفاظ المشكّلة للمعنى، فإن غلبت عليه الألفاظ الجزِلة القويّة كان قويّا، وإن غلبت عليه الألفاظ اللّيّنة كان ضعيفا.

– يعتبر الإيقاع بما فيه من فاصلةٍ صوتيّة وطولٍ وقِصرٍ في الآيات عاملًا مهمًّا في تقوية وتليين قوّة المقام كما يعتبر عاملا مهمّا في المساهمة في تأديّة المعنى.

– أمّا من حيث بلاغة المقامات فلكل مقام بلاغته، وما يصلح منه في موضعه لا يصلح له غيره فيه، لتداخل المقام مع الموضوع والمعنى، ولا أحسنَ من القرآن في مزجه للمقامات، فقد أعطى كلَّ ذي حقّ حقّه وكلَّ ذي مكانة مكانته، بانسجامٍ واتزان، دون إخلالٍ أو إعلال.

توصيات:

– يعتبر موضوع هذا البحث موضوعا جديدًا في الدّراسات القرآنية من حيث الطّرح والتقسيم والفكرة، ومن هنا نرجوا أن يكون هذا البحث منطلقا لدراسات أخرى أكثر عمقا.

– نشر هذا البحث على مستوى مجلّتكم ليتسنّى للباحثين الاطلاع عليه، وتقييمه، وإثرائه.

– سنحاول –إن شاء الله– بناءً على هذه الدّراسة إقامة دراسة أخرى أكثر توسُّعا من النّاحية النظرية، مع تعميم الفكرة على نماذج قرآنية أكثر شموليّة، ومن هذا المنطلق يطيب لنا تقبّل الآراء والانتقادات حول هذا الموضوع لتكون الدّراسة القادمة أكثر مقبوليّة ومصداقيّة، لأجل هذا يرجى التّواصل مع صاحب الأيميل المنشور في أوّل الصّفحة.

6. المصادر والمراجع:

1. أحمد بن إبراهيم الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، (المكتبة العصرية– بيروت).
2. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (المكتبة العلمية– بيروت).
3. أحمد عبد الله البدوي: من بلاغة القرآن، (نهضه مصر – القاهرة، 2005م)
4. بهاء الدين الهمذاني: الكشكول، تحقيق:محمد عبد الكريم النمري، (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، 1418هـ –1998م).

5. جريدي سليم سالم المنصوري الثبيتي: التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين وقيمته في الفكر الحديث، رسالة ماجستر، إشراف: الدكتور مصطفى عبد الواحد، (جامعة أم القرى- مكة، 1404هـ/ 1989م).
6. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، (دار الفكر - لبنان - 1416هـ- 1996م، ط: 01 و02).
7. حازم أبو الحسن القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق:محمد الحبيب ابن الخوجة، "أصلها رسالة دكتوراه 1964م - باريس" (دار الغرب الإسلامي، ط: 03، 1986م، بيروت/ لبنان).
8. الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنترة (عنترة بن شداد)، تحقيق: مجيد طراد، (دار الكتاب العربي، 1412هـ/ 1992م).
9. سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، (دار الشروق - القاهرة، 1425هـ/ 2004م، ط: 17)
10. شهاب الدين الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، (عالم الكتب – بيروت، ط: 01، 1419هـ).
11. صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، (دار عمار- عمان، ط: 01، 1421هـ/ 2000م).
12. صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، (دار الفاروق- عمان، ط: 01، 1437هـ/ 2016م).
13. ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي- بدوي طبانة، (دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الفجالة بالقاهرة).
14. عبد العظيم المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، "أصلها رسالة دكتوراه" (مكتبة وهبة القاهرة، ط: 01، 1413هـ/ 1992م).
15. عثمان أبو الفتح بن جني الموصلي: الخصائص، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 04)
16. علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 01، 1415هـ)
17. عمرو بن عثمان سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 03، 1408هـ/ 1988م).
18. فضيلة مسعودي: التكرارات الصوتية في القراءات القرآنية -قراءة نافع نموذجا-، (دار أحمد، عمان، الأردن، ط:01، 2008م)
19. قدامة بن جعفر البغدادي: نقد الشعر، (مطبعة الجوائب – قسطنطينية، 1302هـ).
20. قيس ابن الملوح: ديوان قيس بن الملوح مجنون ليلى- رواية أبي بكر الوالبي-، تحقيق: يسري عبد الغني، منشورات: محمد علي بيضون، (دار الكتب العلمية- بيروت، ط: 01، 1420هـ/ 1999م).
21. محمد ابن قيم الجوزية: تفسير القرآن الكريم (تفسير ابن القيم)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، (دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط: 01، 1410هـ).
22. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، (دار سحنون للنشر والتوزيع "الطبعة التونسية"– تونس، 1997م).
23. محمد بن إدريس الشافعي: ديوان الإمام الشّافعي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، (دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط:03، 1426هـ/ 2005م).
24. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، (دار القلم للنشر والتوزيع الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ/ 2005م).
25. محمود بن عبد الرحيم صافي: الجدول في إعراب القرآن الكريم، (دار الرشيد- دمشق/ مؤسسة الإيمان- بيروت، ط: 04، 1418هـ).

26. مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (دار الكتاب العربي – بيروت، ط: 08، 1425هـ/ 2005م).
27. ميمون بن القيس "الأعشى": ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق:محمد حسين، (مكتبة الآداب/ الجماميزت).
28. يحي بن حمزة العلويّ: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (المكتبة العنصرية – بيروت، ط: 01، 1423هـ).
29. يوسف بن أبي بكر السكاكي مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ/1987م.